السويس: فاتحة كتب التاريخ

تاريخ

المدن الثلاث «السويس و الإسماعيلية وبورسعيد» حيث معاناة ناسها وشعبها، تمثل لوحة شديدة الإخلاص فى الانتماء، وإن كانت شديدة الدراما فى الوقت ذاته، ويمكن أن يطلق عليها: تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة.

وعندما يؤرخ لهذه المنطقة الساخنة و الملتهبة سوف تذكر الحقائق الدالة، بل والمؤكدة، على روعة الإنسان - هنا - فى صراعه المرير مع الطبيعة، ومع الاستعمار.

وصراع الطبيعة هنا يتأكد من خلال ملحمة الإنسان المصرى فى حفره لقناة السويس، بشكل بدائى، مائة وخمسة وعشرون ألفا من المصريين، يساقون «سخرة» للحفر، فيختلط العرق بالدمع بالدم، فى لوحة شديدة الدراما.

ويأبى الاستعمار أن يسلم بأن الأرض مصرية خالصة، والدم مصرى، والدموع مصرية، والعرق مصرى، لذلك، فقد شهد «كتاب الحرب» بين المصريين والمستعمر، فصولا كاملة، من المقاومة والصمود والحصار والتصدى.

لم تلن عزيمة الناس هنا، وآلاف الأسماء «شهداء» أحياء عند ربهم يرزقون، وأحياء أعطاهم الله الصحة جزاء ما قدموا للوطن من مقاومة وعرق وصبر، كلها تؤكد الملحمة.

وإذا كان نضال الإنسان المصرى فى هذه البقعة العزيزة و الغالية، قد بدأ فى ١٨٥٩، سنة حفر القناة، فقد شهدت ملحمة أشد قسوة وخطورة وفداء وتضحية مع عمليات السادس من أكتوبر ١٩٧٣، بما تحمله من تفاصيل كثيرة يضمها كتاب البشر على هذه الأرض.

وقد عشت أياما فى هذه البقعة، أبحث و أنقب وأفتش وأستمع وأناقش وأحلل سعيا وراء الإنسان «البطل» صاحب الملحمة، أناس عاديون، صمدوا، ولم يكن طموحهم يزيد عن «النصر» المجرد لحساب الوطن.

وأسجل هنا: أنهم – أى أبناء هذه الملحمة وتلك البقعة – خجلوا من التحدث عن بطولاتهم بل كم كان السؤال استفزازيا، لقد قالوا: «كنا نعمل لحساب الوطن، لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا»!!

وإذ أقدم هذا الملف الإنسانى، من كتاب البشر، الذى يضم تراجيديا الإنسان، فى منطقة القناة، والذى حاولت فيه أن ألم بالتفاصيل الإنسانية، بدءا من تلك الأم التى كانت تطعم الجنود باعتبارهم أبناءها، إلى الرجل الذى كان يقتسم «بلحة» مع خمسة «أنفار» فى ظلام الخندق.

كما أقدم نموذجا إنسانيا، لرجل عاش ست سنوات يشحذ همم الرجال، ويقدم تجربة فريدة فى عالم المقاومة الذاتية اسمها «ولاد الأرض».

● السويس.. مدينة مصرية خالصة، تحتضنها، جبال عتاقة من الغرب، شاهد عيان على هذه المدينة الصامدة، صاحبة ملحمة أبنائها الصامدين.

تطل السـويس على أفق معبق بحضارة فرعونية أصيلة، على خليج السـويس فى رحلته إلى الجنوب، نبع الأصالة الإفريقية، وتلتقى على أرضها الحضارات الإنسـانية من خلال قناة السويس التى ربطت شمال العـالم بجنوبه، كما التقت الأديـان – على ترابهـا – وارتبط الكفاح المصرى بالكفاح العربى والإسلامى.

وكانت السـويس على مدى تاريخها مسـرحا لأحداث ملأت سمع الدنيا، وبصلابة عودها، وصبر شـعبها، استطاعت أن تتحمل وتصمد، وتتخطى كل العقبات، وسـجلت مالا يقوى التاريخ على نسيانه وبقيت السويس هى السويس !

وامتازت السويس – فى الجغرافيا – بأنها جمعت كثيرا من الخصائص النادرة فكما أنها ميناء بحرى على البحر الأحمر، فهى – أيضا – ميناء برى على الصحراء، وقلعة عسـكرية للدفاع عن الوطن، ثم هى كانت ولا تزال، معبرا بشـريا لضيوف الرحمـن فى رحلة الحـج إلى الأراضى الحجازية، وعلى عتبتها «انتهت «المغامرة الفاشلة لإسرائيل فى العام ١٩٧٣».

والسـويس «فاتحـة» كتب التاريـخ، والتى تحتل فصـلا هاما من «كتاب الحرب» هى ذات موقع اسـتراتيجى، ذى صبغة عسكرية عبر كتاب التاريخ، وأقوى حصون الحائط الملكى منذ عهد الفراعنة، ومسرح المعارك الفاصلة فى تاريخ مصر، قديمه، وحديثه.

وقد بدأ وجود السـويس – كما يقول المؤرخ جيمس برسـتد – منذ فجر التاريخ، إذ إن الأسرتين الخامسة والسادسة من الدولة الفرعونية

القديمة «٢٥٦٣ ٢٣٠٠ ق. م» قد أقامتا استحكاماتهما فى قلعة السويس لصد المغيرين، حيث سميت آنذاك «سيكوت» وذلك لكونها ميناء على برزخ السويس الممتد فى هذه الفترة.

وعندما أصبحت «مدينتنا الصامدة» عاصمة للإقليم الثامن من أقاليم الوجه البحرى فى العصر الفرعونى أطلق عليها «بيشوم» إبان حكم الأسرتين ١٩، ٢٠.. وقد اتخذ فرعون مصر آنذاك «يو - سفايس» منها قاعدة لعملياته الحربية، لتأمين مناجم سيناء، ويرجع - على الأرجح - تسمية السويس على اسمه. !

وأثناء حكم اليونانيين لمصر، أطلقوا عليها «هيرو بوليس» ومعناها «مدينة الأبطال» .. ثم تغير اسمها إلى «كليزما» ومعناها باليونانية «نهاية الطريق» وعندما حكمت كليوباترا مصر أطلقت عليها «كليو باتريس» .

وفى العصر الرومانى، أطلق عليها «هيرو - أوى» أى «مدينة الشمس» .. وفى العصر البيزنطى أعيد اسمها «كليزما» .. حتى جاء العرب وحرفوا هذا الاسم إلى «القلزم» .

فى القرن التاسع الميلادى، أصدر خمارويه بن أحمد بن طولون (٨٦٤ - ٨٩٥ م) أمرا بإلغاء الأسماء القديمة، وأطلق عليها «السويس» الذى لا يزال اسم المدينة الصامدة إلى الآن.

وفى القرن العاشر الميلادى، أنشأ الفاطميون ضاحية جديدة جنوب غربى مدينة القلزم، أطلق عليها السويس، ما لبثت أن ضمت إليها القلزم القديمة، التى حلت محلها، وأصبحت ميناء مصر على البحر الأحمر.

وفـى ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩، بدأ حفر قناة السـويس. والتى سـال فيها دماء ١٢٥ ألفا من المصريين، حيث دفنوا فيها بسـياط السـخرة، بلا أكفان (!!) إلى أن افتتحت فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٨.

وتاريخ السـويس - فيما بعد - هو تاريـخ مصر، وهى تمثل كتيبة متقدمـة من كتائب النضال المصـرى، ولعل ما حدث فى كفر أحمد عبده (طريـق القاهرة - السـويس) عند الكيلـو ٩٩، يعد شـاهد عيان قويا على تجبر القوى الاسـتعمارية، ممثلة فـى البريطانيين حينما دمروا «هذا الكفر» فى العام ١٩٥١، نتيجة تصدى الفدائيين لإرهاب الإنجليز، فكان الجزاء التدمير الكامل، سوف تظل «مثل هذه القرية كمثل دنشواى منقوشـا على صفحات قلوب المصريين أثرا باقيـا للفظائع وأعمال الظلم والجبروت التى ارتكبها الاحتلال البريطانى فى أرض الوطن».

وفى إطار تتابع التاريخ، تدخل معركة السويس ١٩٥٦، لتشكل فصلا من كتاب الحرب والنضال للشعب المصرى، وقد نظر المعتدون إلى السويس - نظـرة مغايـرة - فى خططهم الحربية، إذ إنها - أى السـويس - قاعدة رئيسـية لتموين حامية شرم الشيخ وجزر سـنافر وتيران وميناء الطور، كما أنها تزخر بمعامل تكرير البترول واستخراج مشتقاته.

وبالاسـتيلاء على السـويس، تصبح قاعدة للزحف إلى الغرب نحو القاهرة، لكن قذائف مدفعية السـواحل المصرية كانت بالمرصاد للسـفن المعادية، كما تصدت المدفعية المصرية لطائرات العدو، والمقاومة الشعبية جاهزة «للقنص» وفشـلت القـوى المعادية فى الاسـتيلاء على المدينة،

كما فشلت فى حربها بشكل عام.. وكان النصر، انطلاقة كبرى للشعب العربى فى مصر، إلى أن جاء ٥ يونيو الحزين.

..

وبحلول ٥ يونيو ١٩٦٧.. يبدأ فصل جديد، من كتاب الحرب.. فقد كانت مصر «المتوهجة» .. الماضية قدما فى طريق البناء والتنمية. . مصر عدم الانحياز، وحركات التحرر فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، مصر الكتيبة المتقدمة فى مواجهة صلف الإمبريالية العالمية.. يأتى الخامس من يونيو.. ليوقف طلائع التقدم.

والتساؤل: كيف حال مدينتنا السويس ؟ كيف حال شعبها وهى فى قلب المعركة ؟ !

وللإجابة عن التساؤل.. أقدم شخصية سويسية قلبا وقالبا.. لا يمكن للمرء أن يزور السويس دون أن يلتقى به.. وإلا فاته كل شىء، رائحة التاريخ، روح المقاومة .. إمكانيات المبدع فى مختلف المجالات .. صديق السويسة على اختلاف مشاربهم واعتقاداتهم ورؤاهم !!

الرجل اسمه: كابتن غزالى.. واحد ممن صنعوا روح المقاومة، وصاغوها فنا رفيع المستوى، حتى أصبح واحدا من الأسلحة الهامة فى سنوات الصمود والاستنزاف «٥ يونيو ١٩٦٧ – ٦ أكتوبر ١٩٧٣» .

وإن كان يبادرنى: «أنا مواطن من المواطنين المصريين. شأنه شأن الملايين من أبناء الوطن الغالى، مجرد واحد من آلاف السويسة، الذين لا يبخلون بما يعرفون ويعملون، عندما يكون الوطن فى حاجة إلى جهدهم.

ويؤكد الرجل (٧٠ سنة) : «ما كنتش فى يوم أحلم بنشان.. ولا حتى يوم يبقى لى شـأن ! ! إنما ما أؤمن به، وأعتقده: بأن قيمة الإنسان هى فى قيمة دوره فى الواقع، كما أنه لا شـىء فـى الدنيا يعوض عن قيمة «إنك حى وعايش» خصوصا إذا كنت «سويسيا» !

وغزالى – الذى يتنفس السويس ولا يستطيع أن يغادرها إلى أى مكان فى الدنيا، لأنه فى ذلك مثل السمك، إذا خرج من الماء: مات ! !

– اسأله عن السويس صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ؟

– كان الناس قد علقوا الورود على رقاب المدافع.. فضلا عن أنهم كانوا يغنون للجيش المصرى.. مأخوذين فى ذلك بالتصريحات التى أعلنت، لأن المسألة عبارة عن ساعات ونسمع صوت الراحل العظيم من تل أبيب !

بهذا التفـاؤل كان الناس يعيشـون، ويفتحـون بيوتهم للجيش، تساعده، وتدعمه فى كل شىء.!

لكن فـى ظهر يـوم ٥ يونيو، ولأن السـويس الأقرب إلى سـيناء. لا يفصلنا عنها سـوى ١١٠ أمتـار هى عرض القناة .. فقـد عرفنا قبل غيرنا، بالهزيمة الكاسحة !

والسـويس – والكلام مازال للغزالى – مدينـة متفردة، حظ المواطن فيها كبير، لذلك شـهدت سنوات الستينات توهجا، أفرز نشاطا ثقافيا وسياسـيا واجتماعيا، فضلا عن «البسـطة» فى المعيشـة، لذلك لا تجد هناك أزمات بطالة، ٩٠ ٪ من أهلها يعملون فى البحر، ويحتكون يوميا بالحضـارة، كل ذلك جعلها – دائما – مدينة متوثبة، وقد تواصل ذلك

مع تاريخها، إنها مدينة فى مقدمة المدن المصرية المعرضة دوما للشرور الاستعمارية.

– كابتن غزالى: ما حدث فى ظهر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ فى السويس، سوف يظل محل تقدير، وإن كان يحتاج لدراسة، وتقييم، وتحليل، ذلك أن تجربة السويس هى فى الواقع تجربة شعب، وتجربة عمل وطنى، أعتقد أنه مازال صالحا لتطبيقه لدى كل الجماعات التى تحب الوطن.

هل أوضحت لنا، كيف استقبل شعب السويس الهزيمة ؟ وماذا فعل الشباب السويسى إزاء ذلك ؟ هل لطم الخدود، أم تحرك فى اتجاه ثان !؟

– يقول: الناس فى السويس – كانوا – مهيئين لرفض الاعتراف بالهزيمة، وبدأوا على الفور فى التعامل مع الجيش، باعتبار أنهم «أولادهم» .. وأنهم «خدعوا» .. شأنهم فى ذلك شأن الشعب المصرى، وأنه لم يقدر لهم أن يحاربوا، أو يواجهوا.

وقد بدأ مجموعة من الشباب السوايسة تفكر بسرعة – فى وقت تعطل فيه التفكير على المستوى الرسمى – كيف نعمل على ألا تسيطر الهزيمة على الناس ؟

إذن علينا أن نكوّن «مجموعة إعلامية ترمى كلاما وسط الناس»، خصوصا وأن هناك فرقا كبيرا «بين النصر عالى الصوت، والهزيمة التى تراها العين» !!

وكونـا لجنة أخرى، بدأت تدعو إلى «تجييـش» المدينة، وانطلقت مجموعات من الشباب تهيئ المدارس لاستقبال «العساكر الشاردة» فضلا عن حمل المصابين إلى المستشفيات للعلاج.

إذن لا بديل عن المقاومة.. لا سيما وأن معظمنا كانت له سابق ممارسة في حروب ٤٨، ٥١، ٥٦، فضلا عن تجربة السويس المريرة مع الاستعمار، حيث كان يسكنها في العام ١٩٥١ نحو سبعة آلاف أسرة بريطانية.

بهذا الوعي: انطلق كل الناس، في حالة من حالات الإصرار والاستماتة في الدفاع عن المدينة، ولم يكن أمامنا سـوى «تجييش» الناس، وفضلا عن اللجان السـابقة، شكلت لجان تبحث عن العساكر الشاردة في تيه سيناء، وذلك من خلال شباب يعرف دروب سيناء جيدا.. وتسليمهم لوحداتهم.

ظلال ٥ يونيو كثيفة !

لذلك علينا أن نفكر بشـكل استراتيجي لمعايشـة هذه الظروف، لأن الحرب لن تنتهي في يوم وليلة.. إذن لابد من تدريب الناس على السلاح، لذلك كانت كل شوارع السويس في فترة وجيزة «مجيشة» .. وفي مواجهة مع الإسرائيليين على طول ضفة القناة برغم آلياتهم وإمكانياتهم.

بدأنا في نظام إعلامي، بشرط أن يكون للناس – هنا في السويس – دور المشـارك في الحوار، شرحنا فيه أبعاد المسـئوليات الملقاة على عاتقنا – والتي تحملها الأيام القادمة، وتدبرنا سـويا مصير السـويس، خصوصا وأن الاعتداء الاسـرائيلي كان يوميا على المدينة، لاسـيما وأنه لا توجد

حدود بيننا وبينهم سوى عرض القناة، هنا، فإنه لا يوجد محل «لصفارة الإنذار» لأنه فى «ثانية واحدة» كنا نجد الطائرات فوق رءوسنا ! !

..

لقد باتت المدينة كلها تحت الخطر، فكان لابد، وتبعا لذلك، أن يكون عملنا فى هذا المستوى من المسئولية، لذلك فقد استجاب الناس لدعوتنا، بل أكثر من ذلك، فقد قام الشباب السويسى بعمليات فدائية على جانب كبير من الشجاعة والإقدام، مثلما فعل محمد عبد ربه، الذى سبح فى القناة وأبطل مسرحية إسرائيلية كانت تستهدف الاستيلاء على نصف القناة الشرقى، بأن أبطل قناديل كان قارب اسرائيلى يقوم من خلاله بتثبيت علامات.. بل إنه أسر الجنديين.!

..

– من الواضح يا كابتن غزالى.. أن أشكالا متعددة من المقاومة، قام بها الشباب بقيادتك.. حدثنا إذن عن التجربة الإبداعية والفنية التى صاحبت المقاومة، والتى استهدفت – بالأساس – تنمية عناصر المقاومة الذاتية عن طريق الفن ؟

– بداية: معروف عن السويس أنها مدينة تغنى، فضلا عن كونها مدينة فلكلورية، ولأن الفن واحد من الأسلحة الخطيرة جدا، فى تنمية عناصر المقاومة الذاتية، لذلك كان يلزم استحداث أشكال من الإبداع تعايش الناس، خاصة «الغنوة» بشرط أن تحمل مضامين تساعد الجنود على أن يعيش حياته «كإنسان» على أن تتحول «الحبيبة» إلى «وطن» وإلى «كرامة».

هـذا فضلا عن دورنـا فى إعلام الوطن بكيفيـة أو بأخرى، بالواقع الموجود فى السويس، كنا نستهدف من تجربتنا الفنية «تجييش الوطن كله» لمواجهة هذا العار الذى فرض علينا.

هنا ظهرت فرقة «ولاد الأرض» التى أنتجت ٤٨٣ نصا خلال سـت سـنوات هى وثائق فى السياسة، والعمل الوطنى. فضلا عن أنها كانت ظاهرة حقيقية للمقاومة، من خلال توظيف الأدب الشـعبى مستهدفة إعـادة صياغـة الوجـدان المصرى، من خـلال رفض الهزيمـة، وعدم الاعتراف بالأمر الواقع.

غنينا الذى يجب أن يكون.. وليس ما هو قائم:

أبـــوح يـــا أبـــوح
دم البـلـد مـسـفـوح
يـا صـاحـب الـبـقـرة
يـا زراع الـشـجـرة
تـطـرح وتـديـهـم
والـطـمـر فـيـهـم
بـاعـونـا للـكـفـرة !

وقلنا:

مـاتـقـولـيـش
مـاتـعـدلـيـش

حل واحد غيره مفيش
لأجل ولادنا الجاية تعيش
الحرب الحرب.. وغيره مفيش
قـــوة أمـــريـــكـــا
أمـــور بـــولـــتـــيـــكـــا
حلف الأطلنطى مايهزمنيش!

..

من هنا كانت الأغنية هى الوسيلة المتاحة - كما يقول كابتن غزالى - بعد أن احتل الجيش المصرى مواقعه، وجدد دماءه وأصبح هناك «تراشق» بين الطرفين، أو ما سمى بـ «حرب الاستنزاف» .

كان علينا أن نصبح فى خدمة القوات المسلحة، وأن نحرس المنشآت وأن نغنى.. أى إن الموقف كان يستلزم أن يكون لنا معايشة حضارية، نقرأ ونكتب ونرسم ونمثل ونغنى ونرقص، فضلا عن أننا نحارب !

وقد أفرز هذا الإبداع مسرح الخندق، وسينما الخندق، وغنوة ولاد الأرض.

- وبماذا تفردت ولاد الأرض ؟

- تفردت بالغنوة الجماعية، التى يمكن ترديدها بأى مجموعات، وبأى أصوات، فضلا عن أنها كانت تقوم بنقل أخبار الاستنزاف من الجبهة إلى باقى الوطن عن طريق «الغنوة» !

بل لا أغانى والكلام لغزالى إذا قلت: إن أغنية ولاد الأرض كانت عبارة عن «منشـــور سياســـى» يحمل تعبيرات الناس، ولغتهم، ومقولاتهم، ويحملها مضامين تدفع إلى الصمود، والمقاومة الذاتية:

مــش هــانـــســلــــــم
لا.. لا
رأى الشعب صاحب الحق
رأيـــه قـــالـــه وعـــالـــى
عـالـى.. عـالـى.. عـالـى
يــوم ٩، ١٠ يـــونـــيـــو
دفـــع تـمـنـهـم غـالـى
مــش هــانـــســلــــــم
لا.. لا

..

الغنوة هنا تحرض على عدم الاستســلام، ورفض الهزيمة والســير قدما فى طريق النضال.

..

وفى المشــوار.. مشــوار الصمود علـــى أرض الســويس كانت أغنية ولاد الأرض، دافعـــة للصمـــود، متفائلـــة واثقـــة، تحلـــم بغـــد يحمل نصرا حتميا:

obeikandl.com

فات الكثير يا بلدنا
مابقاش إلا القليل
إحنا ولادك يا مصر
وعينيك السهرانين
نصرك أصبح نشيدنا
واللى يعادينا مين
بينا يالا بينا
نحرر أراضينا
وعظم اخواتنا
نلمه.. نلمه
نسنه.. نسنه
ونعمل منه مدافع
ونداافع
ونجيب النصر
هدية لمصر
نكتب عليه أساميناً

– كابتن غزالى: كنت أنت الشاعر والملحن والموزع والقائد، فى تجربة «ولاد الأرض» .. هل هذا صحيح؟

obeikandl.com

– كنا تجمعا واحدا، متفاهما، أحلامه واحدة، وموقفه واحد، لذلك يمكن أن نقول: إن «ولاد الأرض» كانت تجربة جماعية إلى حد الشيوع، أى واحد يمكن أن يؤلف، أو يكتب، أى واحد يمكن أن يلحن، والحقيقة الثابتة فى هذه التجربة، التى انطلقت مع طلقات المدافع، أن الغنوة كانت تستلهم من الواقع، وأكتبها كشاعر وأطرحها – فى الخندق – للمناقشة.

كما أن الظرف كان يملى علينا شكل الكتاب، وكان من حق كل واحد فى الجبهة أن يقول (فرد فى المقاومة – طبيب – عسكرى – ضابط) .. من هنا خرجت التجربة بشكل ديمقراطى، ولم تكن الغنوة – هنا – تطريبية، إنما كانت تعبيرية، لبعث الهمة والحماس بين الناس «عسكريين ومدنيين».

..

كانت ست سنوات عاشتها السويس تحارب وتغنى، وأى شعب هذا الذى يغنى للنصر، وهو مهزوم، وأى شعب هذا الذى أنتج أعظم أنواع الأدب والفن فى سنين الهزيمة.

هى – بالقطع – مقاومة ذاتية، نوع متفرد من الشجاعة، سيجله التاريخ حتما !!

ست سنوات «تحضير» لأكتوبر النصر.